حرية البحث العلمي في الإسلام

(القسم الأول)

د.عمار طالبي *

العلم وحرية العالم في القرآن

لم يقيّد القرآن العقل البشري إلا بقيد التحرر من الأوهام والتقليد، بل دعا إلى تحرره من تقاليد الآباء والأجداد وخضوعه للأساطير والكهان والأحبار، وسدنة الأديان وظلمهم لعقل الإنسان وتضليله. وجه القرآن العقل البشري إلى النظر في مختلف مظاهر الكون، وفي تاريخ الأمم، وظواهر النفس الإنسانية، لمعرفة سننها أو قوانينها التي وضعها الله فيها ونظمها على أساسها، سواء في ذلك آفاق الأنفس والمجتمعات البشرية أو آفاق الطبيعة، ولا نقول هذا عن زعم أو هوى، فإن آيات القرآن الكريم بهذا ناطقة، وشاهدة شهادة ونطقا لا يخفى على ذي عقل وضيئ.

كما أن العلم في القرآن ليس قاصرا على العلم الديني أو الأخروي أو عالم الغيب كما يزعم بعض من لم يفهم القرآن و لا تذوق طعمه.

فقد استعمل القرآن العلم كما ذكر أبو بكر بن العربي بمعناه المطلق الذي يشمل كل علم:(**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون**

---

* أستاذ بجامعة الجزائر

شيئا)[1] في بداية خروج الإنسان إلى الوجود، وكذلك في أواخر حياته إذا بلغ عتيا أو أرذل العمر: **(ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا)** [2]، وكلمة "شيء" وكلمة "علم" هاهنا نكرتان تفيدان العموم المستغرق لعلم كل شيء.

واستعمل أيضا في العلم بظاهر الحياة الدنيا بكل جوانبها الطبيعية والإنسانية، أي العالم كله: **(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)**[3]، فهذا العلم الدنيوي مقابل للعلم الأخروي. واستعمل العلم في علم الحساب والفلك: **(هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الآيات لقـــوم يعلمون)**[4] وكذلك قوله تعالى: **(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا)** [5].

واستعمله في معرفة مختلف مظاهر الطبيعة من الماء والسماء والثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام واختلاف ألوانها: **(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء)** [6].

---

[1] *سورة النحل، الآية 78.* [2] سورة الحج، الآية 5. [3] سورة الروم ،الأية 7.
[4] سورة يونس، الآية 5. [5] سورة الإسراء ، الآية 12. [6] سورة فاطر، الآيتين 27-28.

ويشير السياق هنا إلى علماء هذه الأشياء المذكورة ونظامها، فازداد هؤلاء العلماء بهذا العلم يقينا، أثمر ذلك رهبة وخشية من عظمته، وعجيب إتقانه، واختلاف ألوان موجوداته، فهو علم وذوق لهذا الجمال في الألوان أيضا[1]. واستعمل في تعليم الشعر:(**وما علمناه الشعر وما ينبغي له**)[2]. وفي تعليم الكتابة:(**ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب**) [3]. وفي تأويل الرؤيا: (**ولنعلمه من تأويل الأحاديث**) [4] .

وفي تعليم السحر:(**يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم**) [5]، و(**إنه لكبيركم الذي علمكم السحر**) [6]، وفي الصناعة (**وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم**) [7]، وفي تعليم البيان أو القدرة اللغوية: (**خلق الإنسان علمه البيان**) [8] ، واستعمله في فضيلة العلم الذي ينبغي أن يتصف به القائد السياسي والحربي: (**قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم**) [9] .

- تفطن الراغب الأصفهاني إلى ما في القرآن من ارتباط بين العلم والإيمان، فالخشية للحق

[1] صدرت من علم العلماء: "إنّما يخشى الله من عباده العلماء"، ووجل القلوب وخشيتها وصف به المؤمنون: "الإيمان هو الإذعان إلى الحق على سبيل التصديق به واليقين، ولهذا وصف الله الإيمان واحد فقال: "إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقال: "إنما *المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم*" ، *ووجل القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق به باليقين*" . *الذريعة ص 155*.

[2] *سورة يس، الآية 69.* [3] *سورة البقرة، الآية 282.* [4] *سورة يوسف، الأية 21*

[5] *سورة البقرة، الآية 102.* [6] *سورة طه ،الأية 71.* [7] *سورة الأنبياء، الأية 80*

[8] *سورة الرحمن، الأيتين 3-4 .* 9 *سورة البقرة ، الأية 247.*

واستعمله في علم الاقتصاد الذي يؤدي إلى الغنى وكسب الأموال والكنوز، كما قال تعالى على لسان قارون: **(إنما أوتيته على علم عندي)**[1] وفي علم يوسف بالاقتصاد: **(اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم)**[2]. وفي تعليم آدم أسماء الأشياء، أي القدرة العقلية على وضع الأسماء للأشياء ومعرفة حقائقها: **(وعلم آدم الأسماء كلها)**[3]. وفي معرفة المنافقين من خلال لغتهم: **(ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم**[4]) ، واستعمل في تعليم كلاب الصيد والجوارح:**(تعلمونهن مما علمكم الله)**[5]، وفي علم منطق الطير: **(وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير)** [6] واستعمل القرآن كذلك كلمة أخرى هي جارة للعلم وأداته، وهي النظر العقلي الذي استعمل في النظر في الطبيعة: **(أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض**[7]). **(قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)** [8]، وفي بدء الخلق: **(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)** [9]، وفي الثمار وينعها: **(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه)** [10] وفي بناء السماء وزينتها: **(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها)** [11]، ونلاحظ هنا نوعين من الخطاب: خطابا استفهاميا إنكاريا، وخطابا بصيغة الأمر والتوجيه المؤكد. واستعمل النظر أيضا بمعنى التفكير في التاريخ ومصائر الأمم والحضارات والآثار: **(أفلم يسيروا في الأرض**

---

1 سورة القصص ، الأية 78. [2] سورة يوسف ، الأية 55. [3] سورة البقرة ، الأية 31

[4] سورة محمد ، الأية 30 . [5] سورة المائدة ، الأية 4. [6] سورة النمل ، الأية 16

[7] سورة الأعراف، الأية 185. [8] سورة يونس، الأية 101. [9] سورة العنكبوت، الأية 20

[10] سورة الأنعام، الأية 99 . [11] سورة ق، ألأية 6 .

فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم[1]**)** و**(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض و عمروها أكثر مما عمروها)** [2].

واستعمل النظر في توجيه الإنسان إلى النظر في طعامه أو غذائه: **(فلينظر الإنسان إلى طعامه، إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم)** [3].

وفي النظر إلى المادة التي خلق منها الإنسان بيولوجيا: **(فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب)**[4].

ومن الألفاظ القرآنية لفظ "يعقلون" التي وردت بلفظ المضارع في القرآن الكريم كله إلا مرة واحدة فيها بصيغة الماضي، وذلك لدلالتها على أمر مهم هو التجدد والاستمرار في عملية التعقل، وإدراك الأمور إدراكا عقليا متجددا على الدوام.

فمن ذلك: **(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة**

---

[1] سورة يوسف ، الأية109 . [2] سورة الروم ، الأية 9 . و كذلك سورة غافر ،الأية 21 ، و سورة محمد ، الأية 10 .

[3] *سورة عبس، الأيات 24-32 .* [4] *سورة الطارق، الأيات 5-7*

وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) [1] وفي النجوم: **(والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)** [2]، وفي تعقل القلوب:(**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها)** [3]، وفي البرق والماء وحيلة الأرض: **(ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)** [4]، واستعملت هذه الصيغة في تطور الإنسان: **(ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا تعقلون)** [5]، وبصيغة "نعقل" في قوله تعالى: **(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)**[6]، وبصيغة "يعقل" في قوله تعالى: **(وتلك الأمثال نضر بها للناس وما يعقلها إلا العالمون)** [7]، أما صيغة "عقل" فقد وردت مرة واحدة في القرآن الكريم وهي في قوله تعالى: **(يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه)**[8]، وكان المحرف هاهنا لا يستحق أن يجدد فيه التعقل والتفكير.

وهذا كله له دلالته للفطن الذي يتذوق لغة القرآن وأساليبه الجميلة في خطابه لعقل الإنسان ووجدانه، ليتجدد تأمله في كل حين يمكنه ذلك.

أفيمكن بعد هذا كله أن يزعم زاعم أو يدعي مدع أن العلم في القرآن لم يستعمل إلا في العلم الديني أو الشرعي أو الوحي أو عالم الغيب، أو انه لا حرية للمسلم في أن يجيل فكره في كل شيء، ويبحث في

---

[1] *سورة البقرة ، الآية 164.* [2] *سورة النحل، الآية 12.* [3] *سورة النحل ، الآية 46*

[4] سورة الروم ، الآية 24. [5] سورة يس، الآية 68. [6] سورة الملك ، الآية 10

[7] سورة العنكبوت ، الآية 43 . [8] سورة البقرة ، الآية 75 .

كل أمر من أمور الدنيا؟ أو لم يكن هذا الخطاب القرآني هو الذي دفع المسلمين إلى الإبداع في العلوم الدنيوية الطبيعية والرياضية، كما أبدعوا في العلوم الدينية واللغوية، وأقبلوا على أخذ علوم الأوائل حتى الوثنيين، فضلا عن أهل الكتاب، فهضموها وأبدعوا فيها؟ ثم نقلها العالم الآخر عنهم، وترجمها من لغتهم إلى لغته اللاتينية وغيرها.

إن البرهان التاريخي على هذا لأقوى البراهين يضاف إلى برهان نصوص القرآن الواضحة التي أشرنا إلى مجموعة منها، وأوردناها في هذه الورقة مع طولها، قصدا لتأكيد هذا المعنى وتوضيحه وإبرازه لشبابنا خاصة، ليذهب كل شك في ذلك أو تردّد، وليظهر زيف من يدعي العلم بما لا برهان له عليه من منطق أو نص أو تاريخ أو فهم لذلك كله.

ونود – وإن أطنبنا– أن نضيف إلى هذه الألفاظ القرآنية ثلاثة ألفاظ تقرب من العلم وتؤدي إليه، وهي التفكير، والتدبر، والفقه، وقد وردت أيضا في القرآن بصيغة المضارعة لما لها من دلالة على التجدد والاستمرار والصيرورة، فمن ذلك: الحث على التفكير فرادى وجماعات، الفكر في انفراد، والجماعة في حوار أو نقاش أو تعاون على التفكير أو تعلم طرقه، قال تعالى: **(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا**[1]**)**،**(قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تفكرون**[2]**)**، و**(أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين)**.[3]

---

[1] سورة سبأ، الآية 46

[2] سورة الأنعام، الآية 50

[3] سورة الأعراف، الآية 184.

واستعمل التفكير في القرآن في موضوع النفس وما حولها: **(أولم يتفكروا في أنفسهم، ما خلق الله السماوات والأرض و ما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى)** [1] و **(ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا)** [2]، وأما الفقه فقد استعمل في فقه الدين وتعلمه بصيغة المضارعة أيضا: **(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)** [3] وفي فهم القول والحديث: **(وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا**[4]**)** ، و**(فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)** [5].

واستعمل لفظ "**تدبر**" في القرآن بصيغة المضارعة فقط، وذلك في تدبر القرآن: **(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)**[6]، و**(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**[7]**)**، و**(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)** [8]، وفي تدبر القول: **(أفلم يدّبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين)**[9].

وبهذا فإنك ترى أن القرآن وضع ثقته في الإنسان وعقله وعلمه فيما هو متاح له أن يعلمه،ويمكن له أن يصل فيه إلى علم مما وجه إليه نظره

---

[1] سورة الروم ، الآية 8. [2] سورة آل عمران، الآية 191. [3] سورة التوبة، الآية 122
[4] سورة الكهف ، الآية 93. [5] سورة النساء، الآية 78. [6] سورة محمد ، الآية 24.
[7] سورة النساء ، الآية 82. [8]. سورة ص، الآية 28. [9] سورة المؤمنون، الآية 28.

وفكره من ظواهر الطبيعة والتاريخ وظواهر النفس الإنسانية، ولا نجد نصا في القرآن يمنع العلم أو يقيد حرية الإنسان في إحالة نظره وعقله في مسرح الكون، سوى أنه أشار إلى أن تعلم السحر مما يضر في ممارسته،

ولكنه لم يمنع مجرد العلم به، وفي قوله:(**ولا يفلح الساحر حيث أتى**) [1]، إشارة إلى الاستعمال والممارسة، و لم ينوه به باعتباره علما نافعا، ولذلك نجد أبا حامد الغزالي يرى أن العلم :"**فضيلة في ذاته من غير إضافة** " [2]، "**وإذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه، فيكون مطلوبا لذاته**" [3]، والاتجاه العام في الإسلام هو أخذه لمنافع العلم وثمراته بعين الاعتبار، ولذلك ورد الحديث:(**نعوذ بالله من علم لا ينفع**[4]).

العلم في السنة النبوية الشريفة :

يبدو أن المقصود بالعلم في ألفاظ الحديث النبوي غالبا هو العلم الديني الذي مصدره الوحي، ولذلك فإن المحدثين يؤكدون هذا، فقد ورد أن: "**العلم ثلاثة وما سوى ذلك فضل، آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة**"[5]، وورد أيضا: "**العلم ثلاث: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري**"[6]، وهذا لا ينفي العلم الدنيوي، وإنما جاء هذا الحصر للمبالغة ولبيان مصدر هذا العلم ومرجعه كما ورد ما يقصد إلى العلم الديني أيضا وهو: "**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**"[7]، وما أخرجه البخاري ومسلم من قوله

---

[1] سورة طه، الآية 69 . [2] الإحياء ج1ص21. [3] الإحياء ج1 ص21

[4] أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن. انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء (30/1)

[5] أخرجه أبو داود والبيهقي والحاكم عن ابن عمر. (كتر العمال رقم 28659).

[6] أخرجه الديلمي في مسند الفردوس. (كتر العمال رقم 28660).

[7] فيه خلاف بين المحدثين، صححه الإمام أحمد. (كتر العمال رقم 28918).

صلى الله عليه وسلم: "**مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم، كمثل غيث كثير ....**"[1] الحديث.

بيد أنه ورد في السنة أحاديث كثيرة تحث على علوم الدنيا، منها: "**يا زيد تعلّم لي كتاب اليهود، فأني والله ما آمن من يهود على كتاب**"[2]، وفي نص آخر: "**إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا أو ينقصوا، فتعلم السريانية**"[3]، وفي الأثر: "**من تطبب، ولا يعلم منه الطب فهو ضامن**"[4]، يضمن لأنه لم يبن ممارسة للطب على علم، فعلم الطب إذن مشروع، تمنع مزاولة الطب دون علم أو تجربة.

وعلم الأنساب والنجوم من عادة العرب، فقد ورد في الأثر: "**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا، وتعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا وتعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا**"[5]، فعلم الأنساب والعربية، وعلم النجوم مطلوبة للحاجة إليها، وإن كان ورد النهي عن التنجيم، ففي الأثر: "**من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد على ما زاد**"، ويبدو أن المقصود هنا التنجيم الذي يستعمله أصحابه لأغراض الكهانة

---

[1] *أخرجه أحمد عن زيد بن ثابت. (كنز العمال رقم 29224).*

[2] *رواه عبد حميد عن زيد بن ثابت. (كنز العمال رقم 29225).*

[3] *رواه أبو داود والنسائي والحاكم عن ابن عمر وقال صحيح وأقره الذهبي. (كنز العمال رقم 28229).*

[4] *رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة. (كنز العمال رقم 29162).*

[5] *أخرجه أحمد وأبو داود والبيهقي عن ابن عباس. (كنز العمال رقم 3887).*

والعرافة والسحر، وقراءة مستقبل ما يحدث للإنسان لا العلم الحقيقي على نحو ما نعرفه اليوم في علم الفلك.

وورد تعليم الحرف في قوله: "**علم الله آدم ألف حرفة من الحرف، وقال له: قل لولدك وذريتك إن لم تصبروا فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصا، ويل لمن طلب الدنيا بالدين، ويل له**"[1]، وورد تعليم السباحة والرماية، ففي الأثر: "**علّموا أولادكم السباحة والرماية**"[2].

وهكذا تحث السنة على العلم، وتدل على أنه فريضة على كل مسلم، ولا تمنع علما من العلوم إلا ما ثبت أنه خرافة أو انه مضر لا جدوى منه كالسحر والتنجيم، فكل علم في الأصل مباح، ثم يعرض له أن يكون فرض عين، أو فرض كفاية تبعا لضرورته الخاصة أو العامة للأمة.

معنى الحرية في البحث العلمي

رأينا أنه لم يرد نص صريح في منع الإنسان من تعلم أي علم من علوم الحقيقة لا في القرآن ولا في السنة، بل على العكس من ذلك نقرأ حثا عليه وترغيبا فيه، فالعلم فريضة عقلية أيا ما كان هذا العلم دينيا أو دنيويا ما دام الإنسان يستعمل الأدوات المناسبة للوصول إلى العلم،

---

[1] *أورده الحاكم. (كنز العمال رقم 29091).*

[2] *كنز العمال رقم 35343، وورد تعليم النساء لغزل، ويرى المحدثون أن هذا غير ثابت بل هو موضوع. (تذكرة الموضوعات للفتيني، الدر المنثور للسيوطي ج5 ص18، والحاوي للفتاوي له).*

فالإنسان حر في استعمال عقله وتفكيره في مختلف مجالات العلم والفكر، ولا قيد عليه.

ولكن ما هو مستندنا في ذلك؟

من مقاصد الشريعة: "**حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاح الإنسان في عقله وعمله، وصلاح موجودات العالم**"[1]، وهذا ما قرره محمد الطاهر بن عاشور (ت1973م) في كتابه "مقاصد الشريعة" بحيث تكون الأمة قوية الجانب قادرة على الدفاع عن ذاتها ومقوماتها، ولا يتحقق ذلك دون علم. وتفطن الشيخ الغزالي إلى أن ابن عاشور أضاف إلى مقاصد الشريعة التي نص عليها الشاطبي إضافة متميزة وهي مقصد الحرية في الاعتقاد والرأي، في حرية العلم والتعلم والعمل، فإن الاعتداء على الحرية من الظلم الفادح والاستبداد القاتل لروح الأمة.

وإذا كانت الشريعة تعني بمصالح الناس وصلاح العالم ونظامه، فإن المساواة بين الخليقة والبشرية وقيادة الأمة إلى مركز الصدارة في التاريخ والحضارة يقضي بأن تأخذ الأمة بالرأي الذي يسد حاجتها ويحقق مصالحها، ويرقى بها، ولا نضمن ذلك كله إلا بالعلم وحرية البحث والقول، وما إلى ذلك من شروط قوة الأمة وصدارتها، وهذا المقصد مستقرأ من نصوص الشريعة ومواردها. ويرى ابن رشد الحفيد أن مقصد الشريعة هو "تعليم الحق والعمل بالحق"، وأنه: "**ينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعلم الحق والعمل بالحق، والعلم الحق هو معرفة الله**

---

[1] *محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، الشركة التونسية للتوزيع 1978، ص70.*

وسائر الموجودات على ما هي عليه، ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروي، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء، والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى بالعلم العملي"[1]، وينص أيضا في كتابه **"بداية المجتهد": "أن الحرية حق شرعي لا يجوز تبعيضه"**[2].

فالدعوة إلى العلم والحث عليه ورد في نصوص بصيغ عامة ومطلقة، فانتظمت بذلك تلك العموميات كل علم يتعلق بعمل وما لا يتعلق به، وما يتعلق بالطبيعة والتاريخ والأنفس، والعموم يحمل على الاستغراق لدى الأصوليين إلا ما ورد تخصيصه.

ونقل الشاطبي عن العلماء: "أن تعلم كل علم فرض كفاية كالسحر والطلسمات وغيرهما من العلوم البعيدة الغرض عن العمل، فما ظنك بما قرب منه كالحساب والهندسة وشبه ذلك (..)، وأيضا فإن قوله تعالى: **(أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)**[3]، يشمل كل علم ظهر في الوجود، من معقول ومنقول، مكتسب أو موهوب، وأشباهها من الآيات"[4].

ولكن الشاطبي -مع جلالة قدره- لا يتفق مع هذا الرأي، ويرى أن هذا الإطلاق والعموم مقيد أو مخصص، لأن الصحابة والسلف الصالح لم يخوضوا في العلم الذي ليس وراءه عمل، ولأن الشريعة في نظره **"أمية**

---

[1] *فصل المقال (ضمن فلسفة ابن رشد، دار الآفاق بيروت 1403هـ/1972م ص 128).*

[2] *بداية المجتهد دار المعرفة بيروت 1409 هـ/1998م (1/368)، وهذا رأي فقهاء الكوفة في تحرير العبيد، فإذا كان العبد مشتركا وحرره احدهما يجب على الآخر أن يحرره.*

[3] *سورة الأعراف، الآية 185.*

[4] *الموافقات للشاطبي، دار ابن عفان، الخبر 1409 هـ/1997م (1/54-55).*

لأمة أمية"، وقد قال عليه السلام :"**نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب**"[1]، وذهب إلى رأي غريب وهو أن ما تشير إليه الآيات من علوم الطبيعة والهيئة (الفلك) مما لا تعرف العرب ولا تعهده، والقرآن نزل بلسانها فلا يحمل عليها!. ولا تفسير لهذا إلا الوضع الاجتماعي والثقافي الذي أصبح عليه المسلمون في القرن الثامن الهجري الذي هجرت فيه العلوم، واكتفى الناس فيه بالفقه وما إليه، ولهذا نجد ابن عاشور، وعبد الله دراز يخالفانه في هذا الرأي، ولا يعذرانه على هذه الهفوة، وهو العالم بمقاصد الشريعة ومراميها، فالرسالة جاءت لتعليم الناس، وترفع عنهم الأمية التي سادت العرب في عهد نزول الرسالة، وتعلمهم الكتاب والحكمة والقراءة، ولم تأت لترسيخ الأمية أو الجهل بالعلوم، ووصف الشاطبي أهل هذه العلوم بأنهم يتكلفون: "الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات القرآن وأحاديث عن النبي"[2] (ص)، إن العلم الفاسد نفسه، كيف نعلم فساده إن لم نفحصه ونعلم أصوله ومناهجه ونتائجه، وهذا ما يدفعنا إلى معرفة موقف الفقهاء من العلم، وكيف فهموه، وهل كفلوا حرية البحث العلمي؟

(يتبع).

---

[1] *أخرجه البخاري ومسلم والنسائي. الموافقات (55/1).*

[2] *المصدر نفسه (59/1)، (وهذه عادة يبدو أنه اخذها من بعض أصحاب صناعة الفقه الذين لا يعبأون بما لم يدرسوه من العلوم الأخرى، كما لا يعبأ أصحاب النحو مثلا بالفقهاء ويرون أنهم يشتغلون بالحيض والنفاس، فكل من تخصص في علم لا يعبأ بالعلوم الأخرى، ويميل إلى تحقير شأنها، كما أشار إلى ذلك أبو حامد الغزالي).*